

أسود .. أسود ..
كحلي .. بدأت أعدت
الفساتين السوداء ،
والبدلات العاقمة دون
ان يشعروا بي . كان
جلياً ان هذا الفستان لم

الاسماء الذين نعتهم ...

قصة جديدة
مصطفى بن كادي

عندئذ التفت الى
السائل . كان رجلاً
قصيراً ، سمناً . لم اكن
محااجة الى ان أعاشره كي
أعرف انه فضولي ، فقد
كان ينبش « السحارة »

وراء برتقالة ، وعيناه مع ذلك تسرقان النظر نحو الجنازة القادمة .
لم أكن أعرف الميت شخصياً . لقد عرفت اسمه فقط اليوم من
« حنة » عندما كانت ترتب سريري صباحاً . كان قريب
زوجها . وكنت أحب حنة ، وكانت تحبني كثيراً .

قلت له :

— لا اعرف ..

فترك كيس البرتقال من يده مثبتاً عينيه في وجهي ، ثم
وقف الى جوارني :

— كيف تعرف اسمه ولا تعرفه هو ..

— ألا يجوز ان يحدث شيء مثل هذا !

عندما صارت الجنازة امامنا نزلت الى الرصيف ومشيت
مع الناس . لم ارفع رأسي الا بعد ان اقتنعت انني صرت
واحداً من المجموعة ، فرأيت النعش الاسود من بعيد فوق
الرؤوس . كان المشيعون كثيراً ، وقد استغربت ذلك ، ولكن
بعد ان درنا اول منعطف لاحظت ان العدد نقص فجأة الى
اقل من نصفه ، فاستحيت ان اهرب ايضاً . وهكذا شيعت
الميت الذي لا اعرفه حتى المقبرة .

ظلت السماء تمطر طوال الطريق كأنها كانت تريد ردنا عن
اللاحاق به . وفي طريق العودة فتحت علينا أفواهاً واسعة . وكنا
قبضة من الرجال ، فاخذنا نركض على غير هدى بين القبور ،
ولكنني فضلت اخيراً ان الجأ الى جذع شجرة سرو ضخمة حتى
هدأت السماء ، فعدت اخوض في برك الماء والوحل حتى وصلت
الى الطريق العام .

— يا حنة .. لقد تبعتهم حتى المقبرة .. فتبلت ثيابي ..
وسقطت في الوحل كثيراً . هل انت حزينة عليه يا حنة ؟
لم تكن حنة حزينة عليه بقدر ما حزنت عليّ وانا أروي لها
قصتي المحزنة تحت المطر .

— سأمرض يا حنة .. وساموت انا ايضاً ..

وتلاقت عيوننا في ابتسامة . لقد كانت مزحة ثقيلة . ما كان

يكن لونه اسود . وان هذه البذلة ليست للابسة . كنت
أرتدي انا بذلة كحلية . اما عمرها فلا اذكره . إلا انني اذكر
انني لبستها في ايام الحرب الاخيرة . فهل كانت جديدة في ذلك
الزمن ؟ .. لا اذكر .

بدأ عجوز الى جوارني يداعب طفلة صغيرة امامه بصوت
خافت :

— أتذهبين الى المدرسة ؟ . إن وجهك وسخ .. ألا
تغسلينه كل صباح ؟ .

أتاح الصمت الخيم ان يسمع الجميع صوت العجوز ، فبلع
كلماته ، ولكن نظرة واحدة الى الوجوه أشعرته أنهم يريدونه
ان يقتل هذا الصمت الثقيل . فعاد الى سؤال الطفلة بلهجة اكثر
مرحاً كأنه نسي لماذا هو هنا .

عندما بدأ النافوس يدق ، كانت السماء غائمة ، وهدير البحر
القريب يملأ القاعة ، ثم رعدت السماء وبرقت ، فتترك العجوز
الطفلة وتطلع الى السماء من النافذة ثم قال :

— في السماء مطر ...

خرج الرجال ، وبقيت النساء . كان عليّ ان اخرج مع
من خرجوا ، ولكنني تواريت . كانت السماء قد بدأت ترسل
رذاذها ، ولم يكن معي معطف واق .

وقفت امام دكان خضري انتظر مرور الموكب . كانت
السماء تمطر في تلك اللحظة ، وقد بدأت تهب ريح باردة خفيفة .
انا أعرف انه اذا امطرت السماء هدأت الريح . ولكن الريح
كانت تشتد .

عندما ظهر اول رجل من صوب الكنيسة ، سألتني زبون
كان يختار برتقالاً من « سحارة » الحشب :

— هل تعرف الميت ؟ .

قلت له دون ان ألتفت :

— ميخائيل ديب ..

— هل هو كبير في السن ..

أطيبك يا حنة في تلك اللحظة ! .

قلت لها :

— لولاك يا حنة ما دخلت الى قاعة فيها عشرون رجلاً وامرأة لا اعرف واحداً منهم .

فقلت لي :

— ولكنك تعرفني انا ..

ضحك . كنت اعرفها . وكان هذا يكفي . كنت اقول لها احياناً إنها مثل امي . فيصطبغ وجهها المغمض بالدماء ، وتلوك بعض كلمات غير مفهومة ، فيهزني ارتباكها ، وأودّ لو اضمها الى صدري وأقبلها .

في المساء ، عندما كنت اعود من عملي مرهقاً ، وقبل ان اصعد الى غرفتي كنت أدق عليهم الباب ، وأدخل على الفور . فقد كنت اعرف واثقاً انهم في تلك اللحظة متعلقون حول النار .. هي .. وزوجها النحيل المتهدّم .. وابناها الصغيران .. هيلانة وجبرائيل .. فينفضون لاستقبالي وقد أضاءت وجوههم ابتسامة مشرقة . وتهبّ حنة فتزحف فتيمة مصباح الكاز ، وتدفن ركوة القهوة في المنقل ، وتسألني عن عملي ، وأسألها بدوري عن ابنها الكبير ، وهل لا يزال غائباً عن البلدة ، فتنهد ، وتغرورق عيناها بالدموع . وكثيراً ما كان يرفع الزوج رأسه فيسألني :

— متى ستسافر الى الشام يا رضوان افندي ..

وكان كلما سألتني ذلك قال لي بعدها :

— اذا سافرت فلا تنس ان تسلم لي على حكمت افندي في سوق ساروجة قرب حمام الجوزي . .

اما حكمت افندي هذا فيعلم الله وحده اين مكانه . وكنت اقول له :

— حكمت افندي يسلم عليك ..

فيقص عليّ قصة صداقته له منذ ايام الحرب الاولى . في ذهن هذا الرجل كانت صورة صديقه تلخص ماضياً لا يزال يتألق كجمرات النار التي يمدّ فوقها يديه المعروفتين . لقد سألت له عن صديقه كثيراً في سوق ساروجة ولكن لم يذكره احد . لا بد ان حكمت افندي هذا قد مات منذ سنين ، ولكنني لا ازال احمل له تحيات صديقه كلما سافرت واعدت بمثلها . في تلك الأمسيات التي كنت اقطع منها دقائق في تلك الغرفة الواحدة التي تشكل كل البيت ، كنت اتذكر اهلي

واتصورهم حول النار ايضاً ، ولكن في غرفة غير هذه الغرفة . كانت حنة في ايام تعارفنا الاول ترتبك لقدمي ، فلا تريدني ان ادخل قبل ان ترتب الغرفة . وكثيراً ما كنت أفاجئها وهي تلوب في ارجاء الغرفة تحاول ان تخفي فقرها عن عيوني قدر ما تتيح لها يدها الماهرة الناشطة ذلك . ولكنها ألفت سلاحها اخيراً ، فقد كنت بالمقابل لا احاول ان اخفي عنها شيئاً .

الوحدة .. ذلك هو الوحش الذي كنت اخشاه . عندما تغمي السماء يهرب كلُّ الى بيته وناره واهله .. اما انا .. فلم يكن لي اهل يوم جئت هذه المدينة . ولكن ها قد مرّ عامان وبدأت أنسى تلك الأيام الموحشة الأولى . منقل من النار صغير يدخل به عليّ في الليل فتي صغير .. صحن من البرغل بالعدس تحمله فتاة صغيرة ارهقت عينيها القراءة المستمرة تحت ضوء الكاز .. سوالي هل تحتاج الى شيء .. فنجان القهوة التي ترتجف به يد الصغيرة كل صباح مع هذه التحية الخالدة الجديدة ابداً : سعيدة ! سعيدة .. مباركة .. ايامكم يا من احملهم في قلبي ادفاً ذكرى يحملها شاب . تلك الاشياء الصغيرة اليومية كانت تحمل الى غرفتي الفارغة انفاس البشر الحبين . ولكم من مرة حاولت ان اردّ صحن الطعام ، فكانت انكساراً عينين وحدها قادرة على ان تهدّم كبريائي ، وينهار لها ارتباك وحيائي فأشكر في خجل ، ثم تمرّ الأيام ، فأصفتي ، وابدأ الأكل على الفور .

وإن أنس لا انس تلك الليلة التي شعرت فيها ان امعائي موشكة ان تتمزق ، وبدأت أنا وأهـ وانا أجالد الصرخات العالية تكاد تتفجّر . كنت وحدي ، وكان الليل في الخارج هادئاً عميقاً كأنه جبّ عميق يلتهم جميع اوجاعي وصرخاتي ، فاذا انا في صحراء مخيفة ، والبشر على مرمى صوت مني . بدأت أتمتم من بين اسناني :

— آه .. آه .. يا أمي .. يا أمي ..

كالطفل وهو يفرغ الى الصدر الذي يحمله من شرور الدنيا جماء . مثل ذلك الطفل كنت اتوسل وأناديك يا أمّ ، واذا بالباب يفتح ، ويدخل شبح يقول لي على الفور :

— رضوان .. يا الله .. لقد قال لي قلبي من النهار .

لقد قال لها قلبها ! تلك هي المعجزة . في صميم الليل ، كما يفتح التوأم النائم عينه على اوجاع طعنة تلقاها اخوه في طرف بعيد من العالم . مثله ، نهضت هذه المرأة العجوز كأنها ملاك طيب يطوف في الليل مواسياً المعذبين من الناس .

قالت :
 - سأرسل لك هيلانة ..
 - إن هيلانة غير قادرة على مثل هذا العمل . إنها تلميذة
 مدرسة أيضاً .
 كانت هيلانة الى جوارنا تستمع الى حوارنا ولا تتدخل .
 هذه الصبية التي لم تتجاوز العشر سنوات كانت تحسنّ بالمأساة في
 تلك اللحظة ، ولكنها لم تكن تعرف كيف تتكلم .

قالت حنة :

- متى ستسافر ؟

قلت :

- لماذا ؟ هل لك أنت حكمت خانم كي اسلم لك عليها .
 لن اسافر .. سأظل الى جوارك ..

فابتسمت . ولولا انها كانت متعبة لضحكت . وكمن
 توقظه من حلم ، استيقظ زوجها من غفلة على اسم صديقه فسألني
 سؤاله الخالد ، وعندئذ ضحكنا جميعاً ، الا المريضة ، فقد سعلت
 سعلتين جافتين .

ولكن مرضك طال يا حنة . فاضطرت ان اسافر .
 وعندما عدت ، لم اشعر بيدك على متاع غرفتي ، ولم اجدك
 ساعة ذهبت الى بيتكم . كانت هناك امرأة غريبة قيل لي انها
 اخت زوجك . اما الأسرة فكانت كما تعهدين ، إلا ان هيلانة
 كانت لا تقرأ ، فقد اخراجها ابوها من المدرسة بعد ان مت
 كأنها لم تقرأ الا لك . وأما ولدك الغائب فقد عاد .. ولكن
 مع امرأة . واما أنا ..

اتذكرين يا حنة يوم اخبرني بموت قريب زوجك وخرجنا
 وراءه تحت المطر . لقد سألتني في ذلك اليوم احد الغرباء :

- هل تعرف الميت ؟

فقلت له اسمه الكامل مع انني لا اعرفه ، ومشيت وراء
 نعشه . ولكنني في هذه المرة لم اكن حاضراً ، ولو سألوني عن
 اسم الميت لعجزت . انا لا اعرف اسمك الكامل يا حنة . ولكنني
 اعرفك انت جيداً . ومع ذلك فقد رفضت ان تدعيني امشي
 وراءك .

لماذا مت في غيابي يا حنة .. لماذا ؟ ترى أمطرت السماء في
 ذلك اليوم كمعادتها ..

شوقي بغدادي

من رابطة الكتاب السوريين

طرطوس

اما أنت يا حنة ، فلقد أنقذتني من مرضي . أما أنا فماذا
 صنعت لك ؟! عندما سقطت من الاعياء بعد صراع سنوات
 وقالوا لي : حنة مريضة ، ماذا استطعت أن أعمل . لقد اتيت
 لك باذكي طيب . ولكنك كنت خارجة على نطاقه بعد
 صبر سنين على آفة كانت تأكل احشاءك وانت صابرة
 كالقديسات . إنها الغرفة الرطبة الباردة .. لا .. بل هو
 العمل المستمر .. لا .. بل هو نقص في التغذية .. لن اقتش مع
 احد عن الاسباب . أنت الآن امامي غير قادرة على ان تملأي
 ركوة القهوة وتدفيها في منقل النار . وهذه هي هيلانة ،
 واجفة مقرورة ، تحاول ان تقرأ درسها ولكنها لا تفهم .
 وها هو جبرائيل ذاهل يتطلع اليّ كأنني استطيع صنع
 المعجزات . وابنك الغائب .. هذا الانسان الذي لم يعد حتى
 في مرض امه . لكم وددت ان يعود ، فتفرحي به ، وتبائلي
 للشفاء . اما زوجك ، فقد نسي صديقه القديم حكمت افندي
 ولم يحلمني اليه تحايا الوداد العتيق . ألم تشعرني يا حنة في تلك
 الايام انك تقضين على أسرة كاملة لو رحلت عن دنيانا . فلتبذلي
 الجهد كي تشفي ، إننا نحتاج اليك جميعاً .

لم يكن في البلدة زهر يا حنة كي املاً به بيتك الصغير .
 ولكني ملأته بكثير من الاشياء ، وكنت تشكرين بعينين
 مات فيها النور الوضيء الاول ، ولم يبق من القديسة
 إلا الجسد الذي يتنفس .

سألني ذات مساء :

- من يرتب لك غرفتك ؟

قلت لها :

- أنا ..

كامل بكداش واولاده

مستودع الورق الميفان الممتاز

وورق الجريدة وعموم

اصناف الورق

والكروتون

تلفون ٨٤ - ٥٥ شارع المعرض

بيروت